أبوبكر إبراهيم باشا حاكم زيلع ما بين - 1861- 1885
(صديق فرنسا في الساحل الأفريقي لخليج عدن. (الحلقة الأولى)

مقدمة.

شهد القرن التاسع عشر الميلادي العديد من الأحداث المفصلية التي شكلت خارطة إفريقيا الحديثة، وحددت مصائر شعوبها وأممها، وأهم هذه الأحداث وأكبرها تنافس الدول الأوروبية الاستعمارية الكبرى على القارة السمراء للهيمنة على مقدراتها الاقتصادية واستغلال أهميتها الجيوسياسية.!!

وأخذت منطقة القرن الأفريقي وسواحل الصومال النصيب الأكبر من التنافس الاستعماري؛حيث تم تقسيمها إلى مناطق استعمارية بين المستعمرين الأوروبيين(فرنسا ،بريطانيا، إيطاليا) وشارك في هذه التقسيمة الاستعمارية الحبشة اللاعب الإقليمي الوحيد الذي جلس مع الاوروبيين على موائد التفاوض وحاز على نصيبه الوافر من القسمة الاستعمارية .!!

وفي ثنايا الأحداث الجسام التي حدثت مع وصول طلائع الاوروبيين على سواحل البحر الأحمر، أو خلال فترة تواجدهم الطويل على هذه السواحل برزت شخصيات محلية قليلة ساهمت مع الأوروبيين في صناعة الأحداث؛ سواء أكانت معه في موقف المناهضة والضد، أم كانت معه في حالة من التماهي والمسايرة في تنفيذ أجندته الاستعمارية.!!

ولعل أهم هذه الشخصيات وأعظمها أثرا في منطقة زيلع وخليج تجوراء شخصية أبي بكر إبراهيم باشا حاكم زيلع في الفترة بين (1861 - 1885) وابنه برهان أبوبكر وحفيده على عارف برهان، فقد تربعت هذه العائلة على ذروة صناعة الأحداث في منطقة الساحل الصومالي الدنكلي(أوبك تجورا جيبوتي زيلع) زهاء مائة وخمس عشرة سنة ما بين 1861 -1976م، وهي فترة زمنية احتضنت كل المحطات التاريخية المفصلية في هذه المنطقة ذات البعد الإستراتيجي المهم، وذلك ابتداء

من:

-ظهور المصريين على سواحل الصومال(1865-1884)

-التنافس الإنجليزي الفرنسي في اقتسام هذه السواحل

-تأسيس الفرنسيين مستعمرة أوبك الفرنسية شمال خليج تجوراء(1862-1884)

-تأسيس فرنسا ميناء جيبوتي وتوسعها في أرض العيسى.(1888- 1897) وانشاء مشروع السكة الحديدية بين جيبوتي وأديس أبابا(1896-1917)

-رياح التحرر ودعوات الصومال الكبير بعد الحرب العالمية الثانية(1943- 1960)

-الصراع الأثيوبي الصومالي على ساحل الصومال الفرنسي(1960-1977)

ونظرا لأهمية هذه المحطات التاريخية وتأثيراتها على الصعيد السياسي والاجتماعي والاقتصادي لدولة جيبوتي، ولدول منطقة القرن الأفريقي، ودور هذه العائلة العريقة في صناعة أحداثها فقد وقع اختيارنا على السيد أبي بكر باشا أبي العائلة، ومهندس صداقتها الدائمة مع فرنسا؛ للحديث عن أدواره التاريخية طوال فترة حكمه لزيلع (1861م - 1885م) مسلطين الضوء على جانب انحيازه لفرنسا ضد خصومها الأوروبيين في الساحل (بريطانيا، إيطاليا) ووقوفه إلى جانبها إلى آخر لحظة من حياته.!

وقد استمرت هذه العلاقة بعد وفاة الباشا إذ راهنت فرنسا على نفوذ عائلته الاجتماعي والسياسي فنجحت على رهانها أيما نجاح.!!

حيث برز من عائلته السيد برهان بيه الذي استفادت فرنسا من خبرته وجاهه لدى العفر والصوماليين لكونه ابن حاكم زيلع أبي بكر باشا.!

وعمل مع الإدارة الفرنسية في فترة صعبة كانت تتطلب الكثير من العمل والإخلاص، وهي فترة تأسيس مدينة جيبوتي، وتحويل طريق التجارة بين هرر وزيلع إلى ميناء جيبوتي، وترغيب التجار الزيلعيين في الانتقال إلى جيبوتي، ووضع السكة الحديدية بين جيبوتي والحبشة.

وبرز من عائلته أيضا علي عارف برهان الذي وقف إلى جانب الإدارة الفرنسية في مرحلة تكاد المستعمرة تنجرف مع الدعوات الصومالية والإثيوبية والصراع القائم بينهما.!

وليس هدفي في هذه الدراسة المختصرة الدخول في مربع التجاذبات والمزايدات المبنية على المغالبة والتعصب، وهي أمور أحاطت تاريخنا بسور كبير من الشك والحساسية،وجعلتنا لا نستفيد من دروس التاريخ شيئا.!
وإنما هدفي هو إنارة الطريق للشباب الجيبوتي الناهض الذي يسعى لبناء مستقبله ومستقبل أمته دون أن يكون أسيرا لتاريخ لم يعاصرها، ولم يشارك في صناعة أحداثها.!

وحتى الذين شاركوا في صناعتها من الآباء والأجداد لم يكونوا مختارين في توجيه أحداثها على النحو الذي يريدون؛ لأن المستعمر الفرنسي كان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة خلال فترة الاستعمار.!!

1-حالة ميناء زيلع قبل إمارة أبي بكرباشا

وقبل الدخول في الحديث عن أبي بكر باشا ينبغي أن نتناول جزءا مختصرا عن حالة ميناء زيلع ونواحيها قبل تولي أبي بكر باشا إمارة زيلع، وكذلك المناورات الإنجليزية والفرنسية للهيمنة على هذه السواحل في ظل ضعف السلطة العثمانية التي تركت هذه المنطقة تحت رحمة الولاة اليمنيين الفاسدين في مخا والحديدة !!.(1)

حيث كان هؤلاء الولاة يسندون إمارة زيلع لوال تاجر معين من قبلهم شريطة أن يؤدي إليهم جزية سنوية مقدارها 700 ألف ريال، وكان هذا الوالي المعين من طرفهم يستأجر مجموعة من المرتزقة المسلحين ببعض البنادق يقومون بحراسة وحراسة مصالحه التجارية!.(2)

ولم يكن نفوذ هذا الوالي يتجاوز حدود المدينة، وكان في أطراف المدينة مدفعين متهالكين يطلقان عند الأزمات لإخافة القبائل في أطراف المدينة حتى لا تغير على المدينة عندما تتأزم علاقتها مع الوالي!!.(3)

وفي عام 1841م عين التاجر الحاج شرماكي علي صالح من قبيلة جرحجس الإسحاقية أميرا على زيلع خلفا للأمير محمد علي البر (4) وتثبت الملفات التاريخية والوثائق أن شرماكي كان صديق بريطانيا، وأنه كان له يد في اتخاذ بريطانيا من ميناء بربرة قاعدة لتموين عدن بالمؤن والوقود اللازم لتشغيل السفن.! وأن البريطانيين هم الذين ساعدوه في انتزاع حكم زيلع من الوالي العثماني.

ويذكر ردتشارد بيرتون الذي نزل ضيفا على شرماكي أثناء رحلته الى هرر سنة 1854م أن شرماكي عمل من قبل مع الشركة الهندية الشرقية البريطانية، وسافر إلى ممباي، وأنه خسر إحدى يديه أثناء محاولته إنقاذ بعض الجنود البريطانيين في بربرة.!!

ويذكر أنه كان يأمل من بريطانيا أن تؤيده بالأسلحة حتى يستولي على هرر، ويخضع قبائل بربرة لكامل سلطانه!.(5)
وشهد عصر شرماكي ظهور القوى الاستعمارية الكبرى ومناوراتها العسكرية والسياسية للاستيلاء على سواحل القرن الأفريقي، وخصوصا بريطانيا وفرنسا.

وكانت بريطانيا قد اتخذت من مدينة عدن بالضفة الأخرى من الساحل قاعدة لها سنة 1839م، كما استولت على عدد من الجزر في مدخل باب المندب (جزيرة الباب ، جزيرة إيفات) وكذلك جزيرة موسى نظير مقابل مادي قدمته لسلطان تاجورة سنة 1841م ولكنها تركت الجزيرة قاحلة دون تعمير!!.واتخذت من جزيرة بريم اليمنية قاعدة مهمة لها.(6)

وأما فرنسا فقد ظلت هائمة على وجهها في الساحل تبحث عن نقطة لتموين سفنها إلى أن شكلت وزارة الجزائر والمستعمرات سنة 1858م، وبدأت تفكر جديا بعد سلسلة من البعثات

الاستكشافية على السواحل الأفريقية والحبشة بضرورة إيجاد نقطة فرنسية على هذه السواحل الاستراتيجية.(7)

وكان ظهور فرنسا القوي على هذه السواحل نهاية لحكم شرماكي باشا وبداية لظهور شخصية أبي بكر باشا كما سنرى في النقطة القادمة.

2-ظهورشخصية أبي بكرباشا وتوليه إمارة زيلع ودورفرنسا فيها.

أبوبكر إبراهيم شحم الباشا سياسي مخضرم وتاجر شاطر من مدينة تاجورة الساحلية، وينحذر من عائلة عفرية ذات سيادة في تاجورة، ويقال إن أصولها العرقية الأولى من الترك أو من عمان.!!

برز أبوبكر باشا في تجارة الرقيق في خليج تاجورة، وكان يعمل على تنظيم قوافل تجارة الرقيق من شوا حيث كان أحد أبنائه يقوم بتعبئتها إلى خليج تاجورة المحطة النهائية لتصديرها إلى بلاد العربية!.(8)

كوَن أبوبكر باشا ثروة كبيرة من تجارة الرقيق، وكانت تجارته في حالة ازدهار؛ لولا وجود بريطانيا المرابطة في عدن والمناروة في البحر.!

وكانت بريطانيا قد أصدرت بعد معاهدة فينا عام 1814م قرارا بمنع الاتجار بالبشر، وتعهدت بمنع تجارة الرقيق في العالم،كما تعاقدت مع عدد من الدول العالم ومن بينها الدولة العثمانية بقرارات منع الاتجار بالبشر.!!

صادرت بريطانيا سفينة يملكها أبوبكر إبراهيم بحجة أنه يستخدمها لتجارة الرقيق، وضايقت تجارته الرابحة في خليج تاجورة؛ وهو ما دفعه إلى الارتماء في أحضان فرنسا؛ ليجد منها الحماية والأمان لمصالحه التجارية!!.(9)

وارتبط ظهور اسم أبي بكر باشا فاعلا على مسرح الأحداث السياسية في زيلع وخليج تاجورة أسماء كل من لامبرت (Lambert) هو من المبعوثين الفرنسيين لهدف لإنشاء خط ملاحة بين عدن وجزيرة موريش، وعمل قنصلا لفرنسا في عدن.

وتقول المصادر بأن لامبرت هذا كان قد عمل خدمات لأبي بكر باشا، وقدم مساعدات مالية لسلطان تاجورة مما جعل الأخير يعرض عليه أن يتنازل عن جزء من الساحل لفرنسا!.(10)وكان مقتله فيما بعد في عرض البحر قرب زيلع بمثابة مسمار جحا لفرنسا للانقلاب على حكم شرماكي باشا واستبداله بابي بكر باشا صديق فرنسا كما سنرى.!!

والاسم الثاني هو القبطان ليجني (Legenie)الذي كان ممن قابل أبابكر باشا في ساحل تاجورة وعقد معه صداقة فرنسية.

وفي تقرير كتبه القبطان ليجني ويعود لعام 1858م يذكر فيه أنه رأى أبابكر إبراهيم بمجرد وصوله إلى تاجورة، وأنه أظهر استعداده لتقديم أي خدمة ممكنة لفرنسا، وشكى له من تدخلات الشركة الهندية الشرقية البريطانية على تجارته، وشرح له المحاولات العديدة التي قامت بها بريطانيا لشراء نقطة على الساحل، ومجهوداته هو لكي يمنع سلطان تاجورة من التوقيع أي معاهدة مع الإنجليز يتعهد فيها على محاربة الرقيق.

ويذكر فيها أيضا أنه أقنعه بأن يسهل لفرنسا شراء قطعة كبيرة من الأرض بقرب تاجورة في حالة أن قبلت هذه الدولة أن تمنحه حمايتها!!. (11)

كانت بريطانيا تراقب تحركات فرنسا المريبة على هذه السواحل ولقاءاتها المتكررة مع السكان المحليين، فرفعت عددا من الشكاوى للدولة العثمانية، كما بدأت في إجراءات مضايقة أبي بكر باشا؛حيث اتهمه إلى جانب تجارة الرقيق بالعمالة لفرنسا.!!

وتذكر المصادر التاريخية أن بريطانيا بواسطة الوالي العثماني في الحديدة أجبرت أبابكر باشا بدفع أربعة آلاف ريال غرامة باسم التلاعب في بيع بقايا إحدى السفن الغارقة في البحر!!.(12)

ولكن القبطان ليجني (Legenie)دافع عن أبي بكر باشا مدعيا بأن السفينة فرنسية، وأن القضية لا تخص تركيا، ودعا حكومته أن تعيد هذا المبلغ إلى آبي بكر حتى يكون وقع ذلك حسنا في نفوس الأهالي؛ وذلك لرؤيتهم فرنسا تمنع عنهم الظلم. (13)

ولما تكتف بريطانيا بهذا بل وأوعزت إلى صديقها شرماكي باشا حاكم زيلع بأن يسبب متاعب للفرنسيين نظرا لتحركاتهم المريبة في تاجورة.!

وفي 4 يونيو عام 1859م دبر شرماكي باشا حادثة اغتيال مروعة للقنصل الفرنسي في عدن(لامبرت) بواسطة بحارة من قبائل العيسى،وهو على ظهر سفينة بالقرب من جزيرة موسى! وكان (لامبرت) على خلاف مع شرماكي باشا بسبب تدخله في فضية رفعها شرماكي باشا في حديدة مما جعله يخسر هذه القضية!!.(14)

أحدث اغتيال(لامبرت) دويا كبيرا في أوروبا وفي المنطقة، وتقدمت فرنسا بشكوى للدولة العثمانية لأن الأرض التي وقعت فيها الحادثة أرض تابعة للدولة العثمانية، ودلت التحريات الكثيرة التي بذلت أن حادثة الاغتيال تمت بمعرفة حاكم زيلع شرماكي باشا!.(15)

وتعود حقيقة مقتل لامبرت إلى المفاوضات التي كان منخرطا فيها في تاجورة؛ مما أدى إلى انزعاج شرماكي باشا الذي كان يرى نفسه قائما على الحفاظ على المصالح العثمانية في هذا الساحل. وكانت هناك دوافع شخصية لاغتيال حيث تظهر مذكرات لامبرت نفسها أنه كان يسعى إلى انتزاع إمارة زيلع لأبي بكر باشا بدلاً من شرماكي وأنه كان قد أقنع الوالي العثماني بذلك.(16)

وفي رد فعل على ذلك أرسلت الحكومة الفرنسية سفينة حربية برئاسة(فليريو دي لانجل) للتحقيق والقبض على الجناة ومعاقبتهم، وأصدرت التعليمات من الوالي العثماني في الحديدة بالقبض على الجناة!!.(17)

ولكن اللافت في الأمر الذي يدل مدى حالة الضعف والترهل والفساد الذي كانت عليه السيادة التركية لهذه السواحل، هو أن تولى القائد الفرنسي(فليريو دي لانجل) مهمة القبض على شرماكي بنفسه في زيلع، كما نصب السيد أبابكر إبراهيم حاكما على زيلع! تقديرا على تعاونه معهم وتقاطعه مع المصالح الفرنسية! وصادقت السلطة العثمانية على تنصيبه.(18)

ودلت المصادر التاريخية أن(فليريو دي لانجل) كان منهمكا أثناء القبض على شرماكي ورفاقه بجمع توقيعات من رؤساء القبائل الصومالية في زيلع لطلب الحماية الفرنسية على زيلع وملحقاتها، وذكر في تقاريره أن مشائخ القبائل في زيلع طلبوا منه الحماية الفرنسية.!

وأما شرماكي فنقل مكبلا بالقيود على ظهر سفينة لمحاكمته في فرنسا، واختفى للأبد عن الأنظار، وترددت الأنباء بعد ذلك أنه سقط من السفينة، ومات (19) ليسدل الستار على فترة حكمه لزيلع، ويبدأ عصر التاجر السياسي الداهية أبي بكر باشا.!

3-شراء فرنسا لأوبك ودور أبي بكر باشا فيها

أشرنا قيما سبق أن شيخ تاجورة كان قد عرض على لامبرت قبيل مقتله التنازل عن قطعة أرض من الساحل لصالح فرنسا، وأن أبابكر إبراهيم كان قد عرض على القبطان ليجني بأنه سيسهل لفرنسا شراء أرض من الساحل بالقرب من تاجورة مقابل أن تمحنه فرنسا حمايتها وحماية مصالحه التجارية.!!

وحدث أن بادر القائد الفرنسي(فليريو دي لانجل) الذي جاء في الأصل للتحقيق والقبض على الجناة في زيلع لتحقيق وعود أبي بكر إبراهيم لفرنسا ةقرر الاسراع في تنفيذ عقود شراء أوبك واصطحاب السلطان ديني أحمد أبو بكر معه في رحلة عودته إلى فرنسا.

وقع الشيخ ديني أبوبكر معاهدة أوبك في باريس يوم 11 مارس عام 1862م نيابة عن شيوخ الدناكل في هذا الساحل وجاء في نص المعاهدة " أنهم تنازلوا لفرنسا عن ميناء أوبك الواقعة

قرب رأس بير مع السهل الممتد من رأس علي في الجنوب إلى رأس دوميرا في الشمال نظير مبلغ 10000 ريال أي ما قيمته 50,500 فرنك) ".(20)

ولتأكد من صلاحية هذا الموقع وتأهله لميناء ومحطة للتموين أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة فنية على رأسها شيفر كبير الامناء المترجمين، وصلت هذه البعثة ومعها الشيخ ديني أبوبكر إلى أوبك في 30 أبريل 1863م وأشارت كل الدلائل إلى صلاحية هذا الموقع لإنشاء محطة للفحم. (21)

وكانت فرنسا في أثناء التوقيع على المعاهدة قد احتاطت بأن هذا الموقع إذا لم يصلح للسفن فإن فرنسا بإمكانها أن تنقل الميناء إلى أي محطة من المناطق المنصوصة في المعاهدة.

وانتهز المبعوث الفرنسي(شيفر) فرصة وجوده هناك؛ فوصل إلى زيلع ليزف البشرى إلى أبي بكر باشا حاكم زيلع ؛حيث استقبله أبوبكر باشا بحفاوة بالغة، وأقام له عرضا ثقافيا من الرقصات والألعاب الشعبية وأهداه عددا من العجول والخراف!!.(22)

ولمزيد من تأكيد الصداقة بادله أبوبكر باشا بزيارة من جانبه على ظهر سفينة، فعمل المسيو شيفر على الترحيب به، وأعطى لتلك الزيارة صفة رسمية؛ حيث اصطف الحرس لاستقباله وحيوه بالمدفعية عند مغادرته للسفينة.(23)

وفي يوم 19 مايو 1862م قام شيفر بتسلم أوبك بحضور السلطان ديني أبوبكر وأبوبكر باشا حاكم زيلع فوضع العلم الفرنسي على سارية بجانب الساحل، وهتف الحضور بحياة إمبراطور فرنسا وحياة القبطان شيفر بثلاث طلقات مدفعية!!.(24)

وبعد هذا الاحتفال الشكلي غادرت السفينة الفرنسية، واصطحبت معها السيد أبابكر باشا إلى زيلع، ثم واصلت مشوارها إلى عدن ومنها إلى سويس وفرنسا.

وكانت هذه المساعي والتحركات السياسية إرهاصات لميلاد المستعمرة الفرنسية التي عرفت بعد استقلالها بجمهورية جيبوتي.

4 -النتائج المستخلصة.

١ -مدى حالة الضعف والترهل الذي كانت عليه السلطة العثمانية على هذه السواحل؛ وهو ما سمح للمستعمرين الاوروبيين في التدخل في شؤونها، وإنشاء محطات استعمارية عليها،وقد دفعت هذه الأوضاع من الضعف والانكسار دولة خديوي اسماعيل باشا في مصر أن تطلب منها التنازل عن هذه السواحل لصالحها كما سنرى .!

٢ -إن مدينة زيلع التاريخية كانت نقطة تواصل وتلاق حضاري بين الصوماليين والعفر، وتجسد عمق العلاقات التاريخية بين هذين الشعبين، وهي نموذج حي أن بإمكان الجيبوتيين الانصهار في بوتقة الوحدة الوطنية القائمة على العدل والمساواة.

٣ -دهاء فرنسا وقدرتها على اكتشاف القيادات المحلية وتكوين الصداقات القوية مع الشخصيات والعائلات النافذة.

-يعتبر أبوبكر إبراهيم باشا المهندس الحقيقي لعلاقات فرنسا مع هذه السواحل، وهو أمر لا يتم تناوله في الكتابات التاريخية، بينما يتم الحديث كثيرا عن الشيوخ الذين وقعوا على المعاهدات مع فرنسا.

الهوامش:

1-تاريخ إفريقيا العام في القرن التاسع عشر إلى 1888م- منظمة يونسكو العلوم والثقافة .

2-المستشرق ردتشارد بيرتون . First Footsteps in East Africa ترجمة للصومالية بودري ورسمه.

3-تاريخ إفريقيا العام- مصدر سابق .

4-حاضرة الدول الإسلامية في القارة الإفريقية ، إسماعيل العربي.

5 -ردتشارد بيرتون- مصدر سابق .

6-مصر الأفريقية والاطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر. د جلال يحي

7-نفس المصدر.

8-طالع حول موضوع تجارة الرقيق هذا الكتاب

Abou-Baker Ibrahim pacha de Zayla
Marchand d'esclaves commerce et
diplomatie dons de tajoura (1840- 1885)

9-مصر الأفريقية. مصدر سابق

10-نفس المصدر .

11 -مشكلة القرن الأفريقي وقضية شعب الصومال
د جلال يحيى . د محمد نصر مهنا

12-مصر الأفريقية. مصدر سابق .

13 -نفس المصدر .

15-نفس المصدر .

16- JOURNAL DE M. HENRI LAMBERT.

ضمن مذكرات (LE TOUR DU MONDE)

17 -دراسات في تاريخ إفريقيا الحديث. إبراهيم عبد المجيد محمد.

18-مصر الأفريقية. مصدر سابق .

19 -دراسات في تاريخ إفريقيا الحديث. مصدر سابق .

20-وثائق عن الصومال والحبشة وارتريا. أحمد برخط ماح .

21-مصر الأفريقية. مصدر سابق .

22-نفس المصدر .

23 -مشكلة القرن الأفريقي وقضية شعب الصومال. مصدر سابق .

24-نفس المصدر

25 -مصر الأفريقية. مصدر سابق .

الباحث : الياس ادريس احمد.